جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية

آيات قصة ذي القرنين

دراسة تحليلية

الدكتور

عماد محمود محمود عبد الكريم

الأستاذ المساعد بكلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان
جامعة الأزهر

ملخص البحث

آيات قصة ذي القرنين "دراسة تحليلية"

للتفسير التحليلي أسئلته المنهجية التي تدور حول أسباب النزول، ومبهمات القرآن، ودلالة السياق، وبلاغة المفردة، والجملة القرآنية، والدلالات التربوية، واللطائف الإشارية وأسلوب القرآن وغيرها كثير مما تفرضه طبيعة ذلك المنهج، وهذه الدراسة تعرضت لكثير منها حسب مقتضيات النص. ومن ذلك: ما مناسبة هذه القصة لما سبقها؟ وما منزلتها في سياق الوحدة الموضوعة لسورة الكهف؟ وهل كان ذو القرنين من الملوك أم جمع بين الملك والنبوة؟ وما دلالة استهلال القصة بالسؤال؟ من أهم أسباب اختيار آيات هذه القصة؛ لتكون موضوعًا للدراسة؛ ما يمر به المجتمع الإنساني المعاصر من مشاكل، وفساد اجتماعي، وأخلاقي، واقتصادي، وسياسي، ونشوب الحروب الطاحنة التي أكلت الأخضر، واليابس، وشردت شعوباً، ودمرت مدناً، ودولًا كل تلك المشكلات تبحث عن حلول، وقصة ذي القرنين قدمت نموذجًا فعالًا لحل مشكلات مختلفة لشعوب من الغرب والشرق؛ فما أجدر أن نعرض تلك الحلول، ونجدد العهد بها في الوعي الإنساني.

الكلمات الافتتاحية: ذي القرنين – التفسير التحليلي – سورة الكهف– سد ذو القرنين – يأجوج ومأجوج.

الدكتور

عماد محمود محمود عبد الكريم

الأستاذ المساعد بكلية البنات الأزهرية

بالعاشر من رمضان

جامعة الأزهر

RESEARCH TITLE

VERSES RECITING THE PARABLE OF "DHUL-QARNAYN": AN ANALYTICAL MONOGRAPH.

An analytical exegesis of Qur'anic verses discusses methodical questions about matters like: occasions of revelation, ambiguities of the Qur'an, contextual meaning, rhetoric at word and sentence levels, moral messages, euphemism, stylistic features and so on. The study at hand tackles of such aspects only those represented in the verses being analyzed; for example: how does this parable relate to what precedes it? How does it function as a component of the thematic unity of "The Cave" chapter? Was Dhul-Qarnayn just a king or was he a prophet king? What's the significance of introducing the story with a question? … etc.

The importance of this parable as a subject of study resides in its relevance to the troubles the human society is encountering nowadays. The present world is threatened by social turbulences, moral corruption, economic imbalance, and political manipulation. Besides, there are atrocious wars everywhere that destroy all aspects of life, displace peoples, and devastate towns and countries. All these troubles need solutions that can be found in the parable of Dhul-Qarnayn. Peoples of the East and the West can put ends to many of their problems by adopting the values of this story. This is why there is a pressing need for renewing our commitment to those values and reviving them in the consciousness of all humanity.

Key Words: Dhul-Qarnayn – Analytical Exegesis – (Surah "Al-Kahf" / "The Cave" chapter) – the Wall of Dhul-Qarnayn - Gog and Magog.

Dr. Emad Mahmoud Mahmoud Abdul Karim

Department of Exegesis and Qur'anic Studies, Faculty of Girls – 10th of Ramadan – Azhar University

E-mail: emad.mahmod@azhar.edu.eg

مُقَدِّمَة

الحمد لله العزيز الفتاح، والصلاة والسلام على منادي الإيمان، ورسول الهدى، والفلاح. أما بعد: فإن الكتاب العزيز كنز الحكمة الوافر، وبحر العلوم الزاخر. يقف فحول العلماء علي شطآنه مبهورين؛ بأمواج الهدي، والنور، والعلم، يسابق بعضها بعضاً، فإذا مدوا أيديهم؛ ليغترفوا قيل لهم: {**لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**} الواقعة٧٩؛ فقد سبق القول من العزيز الحميد: {**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ**} الأعراف: ١٤٦. فأسأله- سبحانه- أن يصرف عن عقولنا ضلال الشبهات، وأن يُطهر قلوبنا من رجس الشهوات حتى ننعم بفهم كتابه، ونهتدي بهديه، ونسعى في نوره.

وها أنا ذا أتوجه لآيات قصة ذي القرنين متأملًا هديها باحثًا عن أسرارها مستخرجاً لكنوزها. ولأوضح أولاً المنهج العلمي الذي نسجت به هذه الدراسة.

منهج البحث: المنهج العلمي هو" الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تُهيمن على سير العقل وتُحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة"(١).

(١) أصول البحث العلمي ومناهجه للدكتور أحمد بدر ص ٢٥٠ – وكالة المطبوعات الكويتية، ط ٧- ١٩٨٤م، توزيع دار القلم بيروت، نقلاً عن (التفسير والمفسرون (للذهبي) في ثوبه الجديد) ص ٣٤٠.

ومنهج المفسر: "هو الطريق الذي سلكه، وأدى به إلى الكشف عن معاني القرآن الكريم، وهو مقارنته بعض القرآن ببعض ونظره في السنة وأقوال الصحابة، والتابعين، واستخدامه القواعد الشرعية، والعربية، على الوجه المخصوص الذي يُوصله إلى مطلوبه، واستخدامه علوم الفلسفة، والطبيعة، والطب، ونحوها فيما يفيد استخدامها فيه، متوسعًا في فهم القرآن، مضيفًا ذلك إلى ما سبقه من فهم، وتفسير، واستخدامه لفكره تلقفاً من فيض الله تعالى الذي يؤتي الحكمة من يشاء، ولا حدود لبحور حكمته.."(١). وفي العصر الحديث تبلور علم جديد يدرس تاريخ التفسير وجهود المفسرين، وهو (علم مناهج المفسرين)(٢)، وقد قسموا تلك المناهج أقساماً، منها (منهج التفسير التحليلي) وهو المنهج الذي اقتضت طبيعة هذه الدراسة إتباعه؛ ذلك أن التفسير التحليلي يتجه إلى تفسير القرآن حسب ترتيب تلاوته، فيفسر الآيات محل الدراسة وفق هدفها وحدودها، وهذا المنهج التحليلي هو الغالب على مناهج المفسرين قديمًا وحديثًا؛ ولعل السبب في ذلك يرجع إلى كونه يتبع الترتيب المصحفي (ترتيب التلاوة)؛ وهو أمر يسهل معه الرجوع لتفسير آية محددة في سورة محددة بيسر؛ فهذا التفسير كان عبر التاريخ – ولا يزال– هو مرجع المتدبرين للقرآن الكريم أثناء تلاوة أورادهم اليومية؛ لأن تلاوة القرآن الكريم تتم بهذا الترتيب فيحتاج القارئ، والسامع إلى الفهم الجزئي المتدرج سواء عند التلاوة أو الاستماع، كما

(١) صاغ هذا التعريف الأستاذ الدكتور عبد الغفور مصطفى (رحمه الله) في كتابه (التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد للذهبي) ص ٣٤١، ط دار السلام ط الأولى، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.

(٢) ألف في هذا العلم الكثير من الكتب منها (التفسير والمفسرون) للدكتور: محمد حسين الذهبي، و(التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد) للدكتور: عبد الغفور مصطفى (رحمهما الله).

أن هذا المنهج هو الذي عليه مدار أبرز وجوه الإعجاز القرآني، وهو الإعجاز البلاغي؛ حيث يتناول بلاغة الحرف، وبلاغة الكلمة، وبلاغة التركيب، وبلاغة السياق. وفي إطار منهج التفسير التحليلي العام اعتمدت الدراسة كذلك على **المنهج الاستنباطي**(١) في استخراج الصور البيانية والنكات البلاغية والقواعد التربوية واتجهت إلى **المنهج الاستقرائي**(٢) كلما دعت الحاجة.

الدراسات السابقة:

آيات قصة ذي القرنين كسائر آيات القرآن الكريم شملتها التفاسير المطولة والمتوسطة والمختصرة وعنيت بها دراسات في مجالات كثيرة، ولكن القرآن الكريم لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنتهي عجائبه، وقد حاولت هذه الدراسة أن تستفيد مما سبق منتقية، ومنتقدة. مازجة ذلك بالتأمل الذاتي، والتدبر المنضبط بقواعد التفسير، وأصوله في الاختيار، والترجيح، والاستنباط.

أسئلة الدراسة:

للتفسير التحليلي أسئلته المنهجية التي تدور حول أسباب النزول، ومبهمات القرآن، ودلالة السياق، وبلاغة المفردة، والجملة القرآنية، والدلالات التربوية، واللطائف الإشارية وأسلوب القرآن وغيرها كثير مما تفرضه طبيعة ذلك المنهج، وهذه الدراسة تعرضت لكثير منها حسب مقتضيات النص. ومن ذلك: ما مناسبة هذه القصة لما سبقها؟ وما منزلتها في سياق الوحدة الموضوعة

---

(١) **المنهج الاستنباطي هو:** الذي يربط العقل فيه بين المقدمات والنتائج أو بين الأشياء وعللها، على أساس المنطق والتأمل الذهني، فهو يبدأ بالكليات ليصل منها إلى الجزئيات، انظر: البحث العلمي مناهجه وتقنياته: د. محمَّد زيان عمر، ص ٣٢، ط، جدة بالسعودية، ١٣٩٤هـ.

(٢) **هو:** الذي يبدأ بالجزئيات ليصل منها إلى قوانين عامة، المرجع السابق، ص ٣٢.

لسورة الكهف؟ وهل كان ذو القرنين من الملوك أم جمع بين الملك والنبوة؟ وما دلالة استهلال القصة بالسؤال؟

أسباب اختيارها:

من أهم أسباب اختيار آيات هذه القصة؛ لتكون موضوعًا للدراسة؛ ما يمر به المجتمع الإنساني المعاصر من مشاكل، وفساد اجتماعي، وأخلاقي، واقتصادي، وسياسي، ونشوب الحروب الطاحنة التي أكلت الأخضر، واليابس، وشردت شعوباً، ودمرت مدناً، ودولًا كل تلك المشكلات تبحث عن حلول، وقصة ذي القرنين قدمت نموذجًا فعالًا لحل مشكلات مختلفة لشعوب من الغرب والشرق؛ فما أجدر أن نعرض تلك الحلول، ونجدد العهد بها في الوعي الإنساني.

خطة الدراسة: انتظم عقد هذه الدراسة من مقدمة، ومبحثين، وخاتمة.

أما المقدمة فقد اشتملت على: منهج البحث، والدراسات السابقة، وأسئلة الدراسة، وأسباب اختيارها وخطتها.

وأما المبحث الأول فهو بعنوان: مدخل الدراسة، وقد اشتمل على: تعريف القصة، وحكمة ورود القصص في القرآن الكريم، وفضائل سورة الكهف، والوحدة الموضوعية في سورة الكهف، وموقع قصة ذي القرنين فيها، ومناسبة قصة ذي القرنين للقصة السابقة لها، وما ورد من سبب نزول آيات قصة ذي القرنين.

وأما المبحث الثاني فهو بعنوان: مقاطع القصة، وقد اشتمل على سبعة مقاطع:

- **المقطع الأول:** سؤال تحدٍ، وجواب استعلاء. ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣)**﴾ [الكهف: ٨٣].
- **المقطع الثاني:** موجز القصة: عطاء إلهي، وشكر إنساني:﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا(٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)**﴾ [الكهف: ٨٤، ٨٥].

• **المقطع الثالث:** رحلته نحو مغرب الشمس: ﴿**حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)**﴾ [الكهف: ٨٦ – ٨٨].

• **المقطع الرابع:** رحلته نحو مطلع الشمس: ﴿ **ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١)**﴾ [الكهف: ٨٩ – ٩١].

• **المقطع الخامس:** بلوغه بين السدين: ﴿**ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣)**﴾.

• **المقطع السادس:** شكوى ورجاء يقابلها عفة ووفاء: ﴿**قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥)**﴾ [الكهف: ٩٤، ٩٥].

• **المقطع السابع: خطة البناء ومراحله وشكر المنعم (ﷻ):** ﴿**آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)**﴾ [الكهف: ٩٦، ٩٨].

وأما الخاتمة: فقد تضمنت أهم نتائج البحث.

المبحث الأول
مدخل الدراســـة

تعريف القصة لغة:

"القص تتبع الأثر، والقصص الأثر"(١) "والقَاصُّ مَنْ يَـأْتِي بالقِـصَّة علـى وَجْهِهَا كأَنَّهُ يَتَتَبَّعُ مَعَانِيَهَا وأَلْفَاظَهَا"(٢)، ومادة قص في القـرآن الكـريم وردت مراداً بها تتبع الأثر في موضعين. **الأول:** قول موسى (عليه السلام) لفتاه: **{قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً}**. الكهف٦٤. **الثاني:** قول أم موسى (عليه السلام): **{وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}**. القصص١١.

القصة في الاصطلاح العام: "فنُ حكاية الحوادث والأعمال بأسـلوب لغـوي ينتهي إلى غرض مقصود."(٣)، والقصة القرآنية هي: "الخبر عن حادثة غائبـة عن المخبر بها، فليس ما في القرآن من ذكر الأحوال الحاضرة في زمن نزوله قصصاً مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم".(٤)

ومن حكمة ورود القصص في القرآن الكريم: أنـه يـشهد علـى صـدق الرسول (ﷺ) و يبين حقيقة الدين الإلهي الذي جاء به الرسل الكرام (عليهم السلام) وأنـه دين واحد. ويعد من أهم وسائل الهداية والتربية والإصلاح وفيه تعريف بطبائع الناس ووسائل علاجها وسنن الله في عقابها أو معافاتها، وفيه تثبيت لفؤاد النبي (ﷺ) وصحابته الكرام- رضوان الله عليهم - وأهل الحق من بعدهم.

---

(١) المفردات في غريب القرآن ج١/ص٤٠٤.

(٢) تاج العروس ج١٨/ص٩٩.

(٣) معجم علوم اللغة العربية، د. محمد سليمان الأشقر: ص ٣٢٠، نقلاً عن الـسابق نفـس الموضع بتصرف.

(٤) التحرير والتنوير ١ / ٣٥.

والقصص القرآني – على كثرة ما كتب عنه – لا يزال بكراً يُنادى المؤمنين إلى استخراج كنوزه واستنباط درره، وكما قال الإمام أبي حامد الغزالي: "أكثر أسرار القرآن مُعبأة في طي القصص والأخبار، فكن حريصاً على استنباطها لِيُكشف، لك فيه من العجائب ما تستحقر معه العلوم المزخرفة الخارجة عنه"(١).

من فضائل سورة الكهف:

عن البراء بن عازب (رضي الله عنهما)، قرأ رجل الكهف، وفي الدار الدابة، فجعلت تنفر، فسلم، فإذا ضبابة، أو سحابة غشيته، فذكره للنبي (ﷺ) فقال: « اقرأ فلان، فإنها السكينة نزلت للقرآن، أو تنزلت للقرآن».(٢)

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ)، **قَالَ:** «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ»(٣). وعن ابن مسعود، يقول في بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: «إنهن من العتاق الأول، وهن من تِلادي».(٤)

(١) التحرير والتنوير ٣٤٣/٤.

(٢) صحيح البخاري (٤/ ٢٠١)، كتاب: المناقب باب: علامات النبوة في الإسلام حديث رقم: ٣٦١٤.

(٣) صحيح مسلم (١/ ٥٥٥) كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل سورة الكهف، وآية الكرسي، حديث رقم: ٢٥٧.

(٤) صحيح البخاري (٦/ ١٨٥) كتاب: فضائل القرآن باب: تأليف القرآن حديث رقم: ٤٩٩٤، و(العتاق): جمع العتيق، وهو ما بلغ الغاية في الجودة، تلادي بكسر أوله أي: من قديم ما قرأته وتلاد المال قديمه وطَارفه جديدة، فتح الباري لابن حجر (١/ ٩٣).

الوحدة الموضوعية في سورة الكهف وموقع قصة ذي القرنين فيها:

سورة الكهف من السور التي يغلب عليها محور القصص، فهو يمثل إحدى وسبعين آية، من مائة وعشر، يتكون منها أربعًا من القصص هي: قصة أهل الكهف، وقصة صاحب الجنتين، وقصة موسى والعبد الصالح، وقصة ذي القرنين، وهذه القصص وإن تنوعت أساليبها وسياقاتها، فقد اتحدت في الغرض والغاية، والروح التي تجمع بينها، وتربطها ربطًا معنوياً، عميقًا وثيقاً؛ فجميعها يرسخ التمايز بين نظرتين مختلفتين لهذا الكون هما قصة الصراع بين الإيمان والمادية:

النظرة المادية: ترى أن هذا الكون خاضع لأسباب طبيعية تتحكم في العالم، وتتصرف فيه، وهي القوى الكونية التي تسيطر على هذا النظام، وهي الأسباب وخواص الأشياء التي قلمّا تفارق هذه الأشياء، وقلمّا تُخطئ، وفي الناس من اقتصر نظره على هذه الحياة، وعلى هذا العالم المادي المحسوس، ورأى أن المسببات والنتائج تابعة دائماً لأسبابها وعللها، مرافقة لها لازمة، ليس في الوجود من يحول بين هذه الأسباب، وهذه المسببات، ويتصرف فيها بإرادته المطلقة، ويستطيع أن يُوجد المسببات من غير أسباب، ويبدعها إبداعًا، وتعلق بهذه الأسباب، وعبدها كالأرباب، وكفر بكل قوة وراء هذه الأسباب والخواص، وبكل قوة تسيطر على هذا العالم، وتحكمه حكمًا مطلقاً كليًا، وكفر بالحياة بعدها، وبالبعث والنشور، وبذل جهده ومواهبه في تسخير هذه القوى الكونية، والأسباب والخواص، وتسخير المادة، وهام في سبيلها، وبالغ في تمجيدها وتقديسها حتى جعلها ربًا وإلهًا، وأصبح يكفر بكل شيء سوى المادة والقوة، حتى إذا نال منها غايته، وسخر بعضها أو أخضع بعضها لإرادته وحاجته، اعتقد ألوهيته، أو أعلن ربوبيته – بلسان المقال أو بلسان الحال– واستعبد بني

جنسه، وعاث في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، واستباحها لأغراضه وشهواته، أو طموحه، أو مجد أمته ووطنه، أو أسرته وحزبه.

النظرة الإيمانية: تعارض النظرة الأولى في الأساس والمنهج، وهي أن وراء هذه الأسباب الطبيعية، والقوى الكونية، والخواص المودعة في الأشياء، قوة غيبية تملك زمام هذه الأسباب والخواص، وكما أن هذه الأسباب سبب لهذه المسببات، فالإرادة الإلهية القاهرة سبب لهذه الأسباب نفسها، تخلقها وتسيرها، وتفكها من مسبباتها إذا شاءت فهي سبب الأسباب، وهي علة العلل. وإليها المنتهى في سلسلة الأسباب والعلل، وإنَّ خالق هذا الكون، وخالق هذه الأسباب لم يفلت من يده زمام هذا الكون في حين من الأحيان، ولم تتحرر هذه الأسباب من رِقه وحكمه، وهي لا تتمرد عليه ولا تستعصي، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، هو الذي ربط الأشياء بالخواص، والمسببات بالأسباب، والمقدمات بالنتائج لحكمة بالغة، وإرادة قاهرة، وهو الذي يربط ويفك، ويثبت ويمحو، ويوجد الأشياء من العدم، ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)** ﴾[يس: ٨٢].

وأنَّ هناك أسبابًا مؤثرة أخرى تعمل في هذا العالم، وفي مصير الأفراد والأمم، كالأسباب الطبيعية أو أشد، وتتبعها نتائج قد تكون أعظم وأضخم من النتائج الطبيعية، المادية التي تتبع أسبابها، وهي الإيمان والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة، وطاعة الله والعدل والعبادة، والرحمة، والمحبة، إلى غير ذلك من المعنويات، وأسباب تعمل عكسها، كالكفر والبغي، والفساد في الأرض، والظلم والشهوات، والآثام، إلى غير ذلك من المعنويات أيضًا، وأنَّ من تمسك بالأسباب المعنوية الصالحة– من غير تعطيل للأسباب الطبيعية – صَالحهُ هذا الكون، وطابت له الحياة، ويسره الله لليسرى وخرق له – في بعض الأحيان والمناسبات – بعض عاداته، وأخضع له الأسباب الطبيعية، ومن تمسك بعكسها

من المعنويات والأخلاق والسلوك في الحياة، واعتمد على الأسباب الطبيعية فقط، وأسس عليها حياته، حاربه هذا الكون وخانته القوى التي أخضعها، وهو أحوج ما يكون إليها وثارت عليه الطبيعة.

إن سورة الكهف تمثل قصة الصراع بين النظرتين والعقيدتين والنفسيتين، صراع بين الإيمان بالمادة وما يتبعها، وبين الإيمان بالغيب، والإيمان بالله، وشرح لما يتبع كل نظرة من العقيدة، والعمل والأخلاق، والنتائج والآثار، وتحذير من اتخاذ النظرة الأولى التي تؤمن بالمادة والظاهر، وتكفر بالله والغيب.

شرح وتوضيح:

أولًا: "**أصحاب الكهف والرقيم:** هي قصة الإيمان والفتوة والثبات، والتضحية والجهاد، التي تتكرر في تاريخ الإنسانية، وفي تاريخ الحق والعقيدة، وبرهان على أن الأسباب خاضعة للإرادة الإلهية، صديقة للإيمان، والعمل الصالح، فسبيل المؤمن أن يستميل هذه الإرادة بالإيمان، والعمل الصالح، ويستحق نصر الله وتأييده.

ثانيًا: قصة صاحب الجنتين: فصاحب الجنتين لم يكن مشركًا بالله كعامة المشركين، فليس في القرآن ما ينص على ذلك، أو يشير إليه، بل العكس يُشعر أسلوب القرآن بأنه كان يعرف الله ويؤمن به، فقد قال: ﴿ **وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦)** ﴾ [الكهف: ٣٦، ٣٧] فما كان شركه الذي تأسف عليه، وقرع عليه سن الندم: ﴿ **يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢)**﴾ [الكهف: ٤٢]؟! الظاهر الذي لا خفاء فيه، أنه كان أشرك بالله الأسباب، فاعتقدها المُصرفة المؤثرة، التي يرجع إليها الفضل في رخائه وثرائه، وازدهار ماله، واعتمد عليها، ونسي الله، وكفر بتأثيره وتصرفه.

ثالثًا: قصة موسي والخضر: وهي قصة... تُثبت في صورة عملية، واضحة رائعة، أن وراء المعلومات والمكشوفات في هذا العالم، وفي هذه الحياة مجهولات كثيرة، وأن ما يجهله الإنسان – وأعظم إنسان في عصره – أكثر مما يعلمه، وأنه دائماً يبني حكمه على ما يشاهده، ويشعر به، ولذلك يخطئ كثيرًا ويتعثر كثيرًا، وأنه لو انكشفت له حقائق الحياة، وبواطن الأمور وعواقبها، لتغير حكمه كثيرًا، ونقض ما أبرم، وتُثبت أنه لا ثقة بأحكامه وأقضيته، وميوله وانطباعاته، وأن لا إحاطة بهذا الكون الواسع، ولا يصح الإسراع في الحكم، والإلحاح على سوانح الآراء، فإن الحياة غامضة ملتوية، وأن في هذه الحياة ألغازًا، لم يستطع الإنسان – على ذكائه وعلمه وحرصه – أن يحلها،... لقد اختار الله لتقرير هذه الحقيقة العظيمة – التي هي أساس الأديان أو الإيمان بالغيب – أعظم شخصية في عصره، والذي أوتي علمًا كثيرًا، وخيرًا كثيرًا، هو موسى (عليه السلام) أحد أولي العزم من الرسل.

رابعًا: قصة ذي القرنين: وهي قصة رجل جمع بين الإيمان والصلاح، والقوة الفائقة، وتسخير القوى والطاقات المهيأة للإنسان، واستخدام الوسائل الموجودة في عصره، فاستخدم كل ذلك – بعكس الطغاة المفسدين، والفاتحين الظالمين – في صالح الإنسان وخدمة البشرية الصالحة(١). وهي قصة الصراع بين الخير والشر، فالخير يمثِّله ذو القرنين، والشرُّ الذي تمثِّله يأجوج ومأجوج.

(١) انظر تأملات في سورة الكهف، للشيخ أبي الحسن الندوي، ص ٣ وما بعدها، باختصار وتصرف، ط دار القلم بالكويت.

مناسبة قصة ذي القرنين للقصة السابقة لها:

كانت قصة موسى مع الخضر (عليهما السلام) من باب الرحلة في طلب العلم، فأعقبتها قصة ذي القرنين، وهي من باب الرحلة للجهاد، قال الإمام البقاعي: "وقدم الأولى إشارة إلى علو درجة العلم؛ لأنه أساس كل سعادةٍ، وقوام كل أمرٍ"(١)، "والعبد الصالح نسيج وحده في العلم الذي معه، وذو القرنين، نسيج وحده كذلك في دنيا أصحاب الجاه والسلطان والجهاد(٢)، والأحداث التي اشتملت عليها القصتان متناسبة في عددها ففي كل منهما ثلاثة أحداث رئيسة في الأولى: خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار. وفي الثانية: بلوغ مغرب الشمس، وبلوغ مشرقها، وإقامة السدّ(٣).

ومن المناسبات بين القصتين أنه ورد ذكر لملك يأخذ سفن الناس غصبًا في قصة موسى والخضر وهذا يناقض سيرة ذي القرنين تمام التناقض وبضدها تتمايز الأشياء.

ما ورد من سبب نزول آيات قصة ذي القرنين:

لم أقف على سبب نزول لآيات القصة في الكتب التسعة، وأشهر ما ورد في ذلك ما ذكره ابن إسحاق: أن قريشًا بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهما: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله (ﷺ)، ووصفوا لهم أمره، وأخبروهم ببعض قوله، وقالوا لهم: إنكم أهل التوراة فقد

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (١٢/ ١٢٨).
(٢) انظر التفسير القرآني للقرآن (٨/ ٦٩٧) بتصرف.
٣) انظر السابق.

جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث يأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإنه كان لهم حديث عجب، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض، ومغاربها ما كان بناؤه، وسلوه عن الروح ما هو، فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فهو رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريش فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله (ﷺ) فقالوا: يا محمد أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به فقال لهم رسول الله (ﷺ): أخبركم عما سألتم عنه غداً، ولم يستثن فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله (ﷺ) خمس عشرة ليلة لا يحدث الله تعالى إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل (عليه السلام) حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة وقد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، حتى حزن رسول الله (ﷺ) مكث الوحي عنه، وشق عليه ما تكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف..."(١).

(١) سيرة ابن اسحاق = السير والمغازي (ص: ٢٠٢).

المبحث الثاني
مقاطع القصـــــــة

المقطع الأول: سؤال تحدٍ، وجواب استعلاء

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْـرًا (٨٣)﴾ [الكهـف: ٨٣].

المسألة الأولى: سؤال النبي (ﷺ) في السور المكية و المدنية، وموقع السؤال عن ذي القرنين منها:

أولًا: السور المدنية(١): الآيات الوارد فيها صيغة السؤال، الموجه إلى النبي (ﷺ)، تميزت، بأن المسؤول عنه في السور المدنية في الغالب كان بعض القضايا التشريعية؛ فقد ورد في السور المدنية السؤال عن القضايا الآتية:

(الأهلة(٢)، والإنفاق(٣)، والشهر الحرام(٤)، ==

---

(١) بدأت بالسور المدنية مع أن هذا عكس ترتيب النزول؛ لأن آيات قصة ذي القرنين مكية ووردت في سورة مكية فكان من المناسب أن يكون الكلام عن السور المكية تاليًا لأنه مرتبط بالنتيجة الكلية المتعلقة بشخصية ذي القرنين وأهميتها.

(٢) قال تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَـأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّـهَ لَعَلَّكُـمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)**﴾ [البقرة: ١٨٩]. والسؤال في هذه الآية كان عن ظاهرة كونية فحوله الجواب إلى مسألة تشريعية عن طريق جواب الحكيم.

(٣) قال تعالى: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)** ﴾ [البقرة: ٢١٩].

(٤) وقال تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ=**

==والخمر والميسر(١)، واليتامى(٢)، والمحيض(٣)، وذلك في سورة البقرة المدنية، وورد السؤال في سورة النساء بصيغة (يسألك) خاصًا بسؤال أهل الكتاب النبي (ﷺ) أن ينزل عليهم كتابًا من السماء(٤)، وورد السؤال عن الكلالة بصيغة (يستفتونك) في سورة النساء(٥) وهي مدنية. كما ورد السؤال عما أحله

=**فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)**﴾ [البقرة: ٢١٧].

(١) قال تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)** ﴾ [البقرة: ٢١٩].

(٢) قال تعالى: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)**﴾ [البقرة: ٢٢٠].

(٣) قال تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)** ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

(٤) قال تعالى: ﴿ **يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (١٥٣)**﴾ [النساء: ١٥٣]

(٥) قال تعالى: ﴿ **يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)**﴾.

الله لعباده من الأطعمة في سورة المائدة(١)، وهي مدنية. وورد السؤال عن الأنفال في سورة الأنفال(٢)، وهي مدنية كذلك.

وورد السؤال عن الساعة بصيغة: (يسألك الناس)(٣) في سورة الأحزاب وهي مدنية.

نتيجة عامة: وهذا يُوافق أبرز مميزات السور المدنية، وهو الاهتمام غالبًا بقضايا التشريع، ونظام المجتمع.ومجادلة أهل الكتاب.

ثانيًا: السور المكية: السور المكية، التي ورد فيها السؤال للنبي (ﷺ) جاء المسؤول عنه قضايا عقدية وغيبية؛ فنجد السؤال في سورة الأعراف[٤] والنازعات(٥) عن (الساعة)، ==

---

(١) قال تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤)**﴾ [المائدة: ٤].

(٢) قال تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١)**﴾ [الأنفال: ١، ٢].

(٣) قال تعالى: {**يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣)**﴾ [الأحزاب: ٦٣]

(٤) قال تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)**﴾ [الأعراف: ١٨٧].

(٥) قال تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)** ﴾ [النازعات: ٤٢ – ٤٦].

==وفي سورة الإسراء عن (الروح)([1])، وفي سورة طه عن (الجبال)([2])، وفي سورة الكهف عن (ذي القرنين)([3]).

نتيجة عامة: وهذا يتوافق مع أهم مميزات القرآن المكي وهو التركيز على قضايا الإيمان والغيب، وقصص السابقين.

نتيجة خاصة بشخصية ذي القرنين:

من هذا التتبع والحصر يتبين أن الشخصية الوحيدة التي سُبقت بصيغة السؤال سواء في السور المكية أو المدنية هي شخصية ذي القرنين، وهذا الأسلوب يُضفي مزيداً من الاهتمام، فالتصريح بالسؤال هنا للتحدي، ولعل سر الاهتمام به؛ أنه يُمثل نموذج الحاكم القوي الأمين، يحمى الضعفاء، من ظلم الأقوياء، ويعاقب الظالم، ويجوب تُخوم الأرض، داعياً مصلحاً معمراً، فضلًا عن أنه قد بنى ملكه أخذاً بالأسباب واتباعاً لسنتها؛ فلم يرد في قصته أنه تم تأييده بخوارق العادات، أو سخرت له الجن والريح، مثل سليمان (عليه السلام)، فهو

---

(١) قال تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)**﴾ [الإسراء: ٨٥].

(٢) قال تعالى: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧)**﴾ [طه: ١٠٥ – ١٠٧]. قد يكون سؤالهم هنا عن الجبال باعتبارها ظاهرة كونية فجاء الجواب لينقلهم إلى مشهد من مشاهد يوم القيامة بأسلوب بلاغي جميل وهو أسلوب الحكيم. هو عند علماء البلاغة صرف كلام المتكلم أو سؤال السائل عن المراد منه، وحمله على ما هو الأولى بالقصد، أو إجابته على ما هو الأولى بالقصد، وسماه الشيخ "عبد القادر الجرجاني": "المغالطة". انظر: البلاغة العربية (١/ ٤٩٨) للشيخ حسن حبنكة الميداني.

(٣) قال تعالى: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣)**﴾. [الكهف: ٨٣].

نموذج أقرب إلى التطبيق البشري، وحاجة الناس في كل زمان لمثله حاجة ملحة. وليس من فراغ أن أول السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة إمام عادل([1]). لعله لكل هذا انفردت شخصية ذي القرنين دون سائر شخصيات القصص القرآني بهذه الصيغة القرآنية: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ...** ﴾ !!!.

ذو القرنين بين الملوك الذين تحدث القرآن الكريم عنهم: يتأكد المعنى السابق عندما نقارن سيرة ذي القرنين بسيرة غيره من الملوك الذين قص علينا القرآن من ذكرهم؛ فإذا استثنينا مُلكَ الأنبياء المصرح بنبوتهم (الذي آتاه الله داود وسليمان ويوسف (عليهم السلام) وملك الاختيار الإلهي (طالوت)([2])، وملكة سبأ التي استجابت لنداء العقل والحكمة، فإن غالب ما ذكره القرآن عن الملوك يتنافى مع سيرة العدل، والإصلاح التي اتصف ذو القرنين بها، فأشهر الملوك الذين اهتم القرآن بذكر أخبارهم هم (فرعون – والذي حاج إبراهيم (عليه السلام) في ربه – وملك أصحاب الأخدود – وملك فتية أهل الكهف – والملك مغتصب السفن في قصة موسى والخضر)، وهؤلاء جميعاً – سواء من ذكروا صراحة، أو فُهم أمرهم من السياق – كانوا ممن صدق فيهم قول الله تعالى: ﴿**... إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤)**﴾ [النمل: ٣٤].

وحسبنا في المقارنة الإشارة إلى أن أحدهم افتخر بأنهار مصر التي تجري من تحته– كما زعم–: ﴿ **وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١)** ﴾[الزخرف: ٥١]. ورحم الله الإمام ابن الجوزي الذي قال: " يَفتخر فِرْعَوْن مِصْرَ بِنهر مَا أَجْرَاهُ،

(١) صحيح البخاري (٢/ ١١١) كتاب الزكاة. باب الصدقة باليمين، حديث رقم ١٤٢٣.

(٢) قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا** ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

مَا أَجرَأَه! " !!.([1]). بينما قال ذو القرنين عندما أكمل بناء السد: ﴿ **قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)**﴾ [الكهف: ٩٨]. وتكرر إضافة كلمة رب إلى ياء المتكلم على لسان ذي القرنين من أوضح الشواهد على أنه نجح في اختبار نعمتي الملك والقوة وكان من الشاكرين.

المسألة الثانية: ذو القرنين (الشخصية واللقب).

أولًا: الشخصية: ورد ذكر (ذو القرنين) (عليه السلام) في القرآن الكريم ثلاث مرات، في سورة الكهف. وقصته من القصص المفردة؛ فلم تذكر إلا مرة واحدة، ولم يُحدد فيها تاريخ حكمه، وكذلك السنة لذا وقع الاختلاف حول شخصيته التاريخية اختلافًا شديدًا، ولا دليل يقطع بصحة أي من تلك الأقوال، ولكن الدليل يقطع ببطلان بعضها فمنها ما يتعارض مع أوصاف ذي القرنين الواردة في القصة كالقول بأنه الإسكندر المقدوني، والمعروف من تاريخ ذلك الإسكندر أنه كان وثنيًا في عقيدته ظالمًا في سياسته. فكيف يستقيم القول بأنه المقصود بذي القرنين الموحد العادل المحسن![2].

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢١/ ٣٧٢).

(٢) **قيل:** هو الإسكندر المقدوني. وقيل: قورش الفارسي، أو دارا الفارسي، وقيل: ملك من ملوك اليمن، وقيل ابن فرعون مصر، ولا دليل على أي منها، راجع ما ذكره الإمام ابن كثير والألوسي في تفسير القصة، ورجح الأستاذ عبد الكريم الخطيب أنه الإسكندر الأكبر التفسير القرآني للقرآن (٨/ ٧٠٠).

ثانيًا: اللقب: اختلف في معنى لقب ذي القرنين؛ ومرد ذلك إلى اختلافهم حول السبب الكائن وراء هذا اللقب(١)، وإذا كان الوقوف على بيانات الشخصية التاريخية لذي القرنين متعذر؛ فإن معرفة معنى اللقب عن طريق الروايات التاريخية متعذر أيضًا؛ لذلك توجهت إلى استعمال القرآن الكريم والسنة المطهرة لكلمة (قرن وقرون) جمعًا وإفرادًا؛(حيث لم ترد مثناة في القرآن إلا في لقب ذي القرنين) لنستأنس باستعمالهما في ترجيح معنى هذا اللقب.

استعمال كلمتي (قرن والقرون) في القرآن والسنة:

أولًا: القرآن الكريم: وردت كلمة (قرن) مفردة في ستة مواضع من القرآن يُراد بها جميعًا "القوم المُقْتَرِنُونَ في زمن واحد"(٢)، وكلها وردت مجردة من الألف واللام. ولم تخرج صيغة الجمع (القرون) عن هذا المعنى، وقد وردت في عشر مواضع كلها معرفة بالألف واللام(٣).

نتيجة: من هذا يتبين أن استعمال القرآن الكريم لكلمة (قرن) باعتبارها اسمًا وجمعها (القرون) استعمال واحد وهو: "القوم المُقْتَرِنُونَ في زمن واحد".

فمن استعمالها مفردة قوله تعالى: ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤)**﴾ [مريم: ٧٤].

---

(١) قال الإمام ابن جزي الكلبي: واختلف لم سمي ذو القرنين فقيل: كان له ضفيرتان من شعرهما قرناه، فسمى بذلك وقيل: لأنه بلغ المشرق والمغرب " تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٤٧٣).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٦٧).

(٣) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي كلمة (قرن) وقرون، والمفردات في غريب القرآن للراغب (ص: ٦٦٧) مادة قرن.

ومن استعمالها جمعًا قوله تعالى: ﴿ **فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦)**﴾ [هود: ١١٦].

ثانيًا: في السنة المطهرة:

وهذا المعنى الوحيد الوارد في الاستعمال القرآن لكلمتي قرن وقرون هو الاستعمال الغالب في السنة النبوية ومن ذلك: عن أبي هريرة (ﷺ)، أن رسول الله (ﷺ)، قال: « بعثت من خير قرون بني آدم، قرنا فقرنا، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه»(١). وإن كان ورد استعماله في معان أخر ومن ذلك: عن أم عطية (رضي الله عنها) قالت: «ضفرنا شعر بنت النبي (ﷺ)» تعني ثلاثة قرون، وقال وكيع: قال سفيان: ناصيتها وقرنيها(٢).

نتيجة:

هذا الرجوع إلى الاستعمال القرآني لكلمتي "قرن وقرون" وكذلك السنة يدفعنا إلى الخروج من الخلاف الوارد في كتب المؤرخين والمفسرين حول معنى لقب ذي القرنين وأرجح في معناه أن حكمه قد طال وامتد لقرنين من الزمان مع ملاحظة الخلاف الوارد في مدة القرن والراجح فيه أنه مائة عام(٣).

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٨٩) كتاب: المناقب، باب: صفة النبي (ﷺ)، حديث رقم:٣٥٥٧، (قرون) جمع قرن وهو الطبقة من الناس المجتمعين في عصر واحد، وقيل هو مائة سنة وقيل غير ذلك، (قرنا فقرنا) أي نقيت من القرون وأفضلها حال كونها قرنا بعد قرن].

(٢) صحيح البخاري (٢/ ٧٥)، كتاب: الجنائز، باب: هل يجعل شعر المرأة ثلاثة قرون؟ حديث رقم: ١٢٦٢.

(٣) راجع في معنى كلمة قرن المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٦٦٧). =

وقد ذكر الإمام البقاعي هذا القول الذي رجحته ضمن مجموعة من الأقوال لم يرجح بينها فقال: "سُمي لشجاعته، أو لبلوغه قرني مغرب الشمس ومشرقها، أو لانقراض قرنين من الناس في زمانه، أو لأنه كان له ضفيرتان من الشعر أو لتاجه قرنان"(١).

ومما يشهد لصحة النتيجة التي وصل إليها البحث قاعدة مشهورة من قواعد الترجيح عند المفسرين وهي أن "حمل معاني كلام الله على الغالب من أسلوب القرآن الكريم ومعهود استعماله أولى من الخروج به عن ذلك"(٢).

المسألة الثالثة: اللطائف البلاغية:

البداية بالسؤال من براعة الاستهلال، فهو يلفت الأنظار، ويثير الرغبة في المعرفة. ومن الإيجاز بالحذف، حذف المضاف لدلالة المقام عليه، والتقدير: (يسألونك عن خبر ذي القرنين) وكذلك حذف المضاف في قوله: ﴿**مِنْهُ**﴾ والتقدير: (من خبره). و(مِنْ) تبعيضيه للإشارة إلى أن أحوال وأخبار ذي القرنين كثيرة وأنه سيقص منها ما يفيدهم قال العلامة الطاهر بن عاشور: "لَمْ يَقُلْ فِي قِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ نَبَئِهِمْ، لِأَنَّ قِصَّتَهُمْ مُنْحَصِرَةٌ

= "يطلَق القرن على زمان الجيل من الناس، وتحديده واسع يسمح بما قيل فيه من عشر سنين إلى مئة سنة. وقد وردت بهذا الأخير سُنَّة شريفة". انظر المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (٤/ ١٧٧٤)، د. محمد حسن حسن جبل الناشر: مكتبة الآداب – القاهرة الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (١٢/ ١٢٨).

(٢) انظر هذه القاعدة وشرحها في قواعد الترجيح عند المفسرين لحسين الحربي ١٥٣/١ راجعه وقدم له الشيخ مناع القطان. ط دار القاسم، الثانية ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

فِيمَا ذَكَرَ، وَأَحْوَالُ ذِي القرنين غير مُنْحَصِرَةٍ فِيمَا ذَكَرَ هُنَا."(١). وسر التعبير عن بطل القصة بلقبه ﴿**ذِي الْقَرْنَيْنِ**﴾ دون اسمه، لتفخيم أمره، وتعظيم سيرته، ولجعله قدوة في الحُكم، والمُلك بقرينة ما جاء من ثناء علي عمله بعد ذلك، واستخدام كلمة (قل) لبيان مصدر الإجابة، وأنه ليس للرسول (ﷺ) فيها إلا البلاغ، و يؤكد هذا المعنى كلمة ﴿**سَأَتْلُ**﴾؛ فإن من معاني التلاوة الإتباع، فهو (ﷺ) يتلو ويتبع الإجابة التي أوحيت إليه (ﷺ)، وفي هذا ما فيه من دلالة على إعجاز القرآن الكريم بذكر الغيب الماضي، والتأكيد على مصدر القرآن الوحيد وهو الوحي. وكلمة ﴿**ذِكْرًا**﴾ مصدر تم الوصف به للمبالغة" فالذكر: التذكر والتفكر، أي سأتلو عليكم ما به التذكر، فجعل المتلو نفسه ذكرًا مبالغة بالوصف بالمصدر(٢). "والسين في قوله: ﴿**سَأَتْلُ**﴾ لتحقيق الوعد كما في قوله تعالى: ﴿**قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي**﴾ فِي سُورَةِ يُوسُفَ [٩٨]"(٣)، و"جعل خبر ذي القرنين تلاوة، وذكرًا؛ للإشارة إلى أن المهم من أخباره ما فيه تذكير وما يصلح لأن يكون تلاوة حسب شأن القرآن؛ فإنه يتلى لأجل الذكر، ولا يساق مساق القصص."(٤). واستخدم ﴿**...عَلَيْكُمْ**﴾ بدل (لكم)؛ لإفادة الاستعلاء والتمكن من العلم المؤدي إلى الإجابة، وهذا يتناسب مع مقام السؤال والتحدي.

المقطع الثاني: موجز القصة: عطاء إلهي، وشكر إنساني.

﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا(٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)**﴾ [الكهف: ٨٤، ٨٥].

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٣/١٦.

(٢) انظر السابق (١٦/ ١٨).

(٣) المصدر السابق (١٦/ ٢٣).

(٤) المصدر السابق نفسه.

المسألة الأولى: التمكين لذي القرنين ونوعه.

التمكين تفعيل من المكان، وهو إقرار الشيء وتثبيته في مكان، وهو يأتي في القرآن الكريم بصيغة الفعل المسند إلى الله (ﷻ)، فهو سبحانه من يمكّن الإنسانَ. قال الإمام أبي السعود: "التمكين ههنا الإقدارُ وتمهيدُ الأسباب يقال مكّنه ومكّن له ومعنى الأولِ جعله قادراً وقوياً ومعنى الثاني جعل له قدرة وقوة ولتلازمها في الوجود وتقاربهما في المعنى يُستعمل كلٌّ منهما في محل الآخر"(١).

وأما نوع التمكين لذي القرنين ففيه قولان: **الأول:** أنه تمكين بالملك وحده. **والثاني:** أنه تمكين بالملك والنبوة معًا. وقد اتفق الجميع على إسلامه وولايته وصلاحه، ولكن اختلفوا حول نبوته، وتُشعر عبارة الإمام البقاعي بترجيح نبوته حيث قال في تفسير قوله تعالى: **{إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ}**: "... ما يُنسب إلى الله تعالى على سبيل الامتنان والإحسان جدير بأن يُحمل على النهاية لا سيما إذا عبر عنه بمظهر العظمة"(٢). وقد دفعتني هذه اللطيفة الإشارية من الإمام البقاعي إلى تدبر بعض السياقات القرآنية لعلي أجد ما يؤيدها فكانت النتيجة ما ستطالعه تحت هذا العنوان:

إشعارات من استعمال القرآن الكريم قد ترجح نبوة ذي القرنين:

الإشعار الأول: ورد الفعل (مكنا) متصلًا بنون العظمة الإلهية ثلاث مرات إحداها قوله تعالى عن ذي القرنين: **{إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ...}**، وأما **الثانية، والثالثة،** ففي قصة يوسف (عليه السلام): **{وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ**

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٥/ ٢٤١) والألوسي (٤٣/٩).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢/ ١٢٩، ١٣٠).

مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ...} [يوسف: ٢١] **{وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ...}** [يوسف: ٥٦]، وهذا قد يُشعر بنبوة ذي القرنين أيضًا؛ لأن يوسف (عليه السلام) آتاه الله النبوة والملك.

الإشعار الثاني: أن فعل الأمر (قلنا) مسندًا إلى نون العظمة الإلهية الذي خوطب به ذو القرنين في قوله تعالى: **{قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا}** [الكهف: ٨٦]. لم يخاطب به في القرآن من الأفراد إلا الأنبياء، وقد ورد ذلك في ستة مواضع وسابعها كان مع ذي القرنين:

- مع آدم (عليه السلام) في موضعين: **{فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ} [طه: ١١٧] {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ}** [البقرة: ٣٥].

مع نوح (عليه السلام) في موضع واحد: **{قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ}** [هود: ٤٠].

- مع موسى (عليه السلام) في موضعين: **{قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى} [طه: ٦٨]. {فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ}** [البقرة: ٦٠].

- مع خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وسلم) في موضع واحد: **{وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ}** [الإسراء: ٦٠].

والموضع السابع كان نصيب ذي القرنين: ﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)**﴾[الكهف: ٨٤، ٨٥].

نتيجة:

من خلال هذا الاستقراء لمعهود استعمال القرآن لكلمتي (مكنا) (وقلنا) المخاطب بهما الأفراد في القرآن الكريم فإن قاعدة الترجيح القائلة إن: "حمل معاني كلام الله على الغالب من أسلوب القرآن الكريم ومعهود استعماله أولى

من الخروج به عن ذلك"([1]). ترجح القول بنبوة ذي القرنين. على القول بأنه كان مَلِكًا ولم يكن نبيًا. والله تعالى أعلم ومنه التوفيق.

الإشعار الثالث: أن القول بعدم نبوة ذي القرنين يستلزم تأويل "القول" في قوله تعالى: **{قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ...}** [الكهف: ٨٦]. بأنه قول إلهام قال العلامة الطاهر ابن عاشور: "وإسناد القول إلى ضمير الجلالة يحتمل أنه قول إلهام، أي ألقينا في نفسه"([2]). ثم ذكر القول باحتمال نبوته بصيغة التضعيف فقال: "وقيل: إن ذا القرنين كان نبيئا يوحى عليه فيكون القول كلامًا موحى به إليه"([3]).

نتيجة:

إذا حكمَّنا قاعدة مالا يحتاج إلى تأويل أولى مما يحتاج إلى تأويل، وقاعدة عدم صرف اللفظ عن حقيقته إلا بقرينة واضحة، فإنها ترجح كذلك القول بنبوة ذي القرنين.

خاصة وأن المؤرخين والمفسرين لم يتفقوا على شخصيته التاريخية من حيث الزمان، والمكان، وليس بين أيديهم صورة، واضحة موثوقة عن حياته، وشخصيته غير ما أخبرنا به الله في آيات قصته، والخلاف بينهم حول ذلك واسع جدًا، وليس عندهم ما يدل على عكس تلك الإشارات الواردة في النص القرآني. والله تعالى أعلم.

ومن المخصص بالسياق قوله تعالى: {وآتياه مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} "فإنه لا يفيد العموم والشمول، لجميع الأشياء.. وإنما المراد به كل شيء يصلح به أمره،

---

(١) انظر هذه القاعدة وشرحها في قواعد الترجيح عند المفسرين لحسين الحربي ١٥٣/١ راجعه وقدم له الشيخ مناع القطان، ط دار القاسم، الثانية ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٦).

(٣) المصدر السابق.

ويقوم عليه سلطانه.. ومثل هذا قوله تعالى على لسان الهدهد عن ملكة سبأ: {**وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ**} (٢٣: النمل) ومثله قوله تعالى على لسان سليمان: {**يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**} (١٦: النمل).. فالمراد بكل شيء في الموضعين: ما يصلح عليه الأمر، ويتم به نظام الحياة في المستوي الطيب الكريم.."(١).

المسألة الثانية: اللطائف البلاغية.

من بلاغة الإيجاز تاريخ (مملكة وملك) في آيتين.

إن مُلْكَاً واسعاً، مثل مُلْك ذي القرنين، يحتاج إلى أدوات، مادية ومعنوية يكاد لا يحصرها العد، والخوض في تفاصيلها يكاد لا ينتهي، وهنا نقف على إعجاز القرآن في إيجازه البليغ، عندما يُخبرنا عن قوة مُلك ذي القرنين، واتساعه وقوته، وحيويته، في ألفاظ محدودة؛ فعند تأمل قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**﴾ نجد تلك الألفاظ على وجازتها يدخل في طياتها كل ما يمكن أن تحتويه سجلات دواوين الممالك الكبرى عن حضارتها، و قوتها السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، والاجتماعية، والثقافية، والأخلاقية.

من بلاغة التأكيد: "تأكيد جملة الجواب بإنَّ؛ لأنه جواب جاء ردًا على سؤال، وجدال وهو من المواضع التي تستدعي التأكيد ﴿...**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ**﴾ (الكهف ٨٤)"(٢).

من بلاغة التنكير: في تنكير السبب، ما يغنى عن وصفه، إذ أن هذا التنكير يحمل في كيانه– مع هذا الأسلوب الذي عليه النظم القرآني– تنويهًا به، ورفعًا

(١) انظر التفسير القرآني للقرآن (٨/ ٧٠٢).

(٢) انظر من بلاغة القرآن ١١٦، لأحمد عبد الله البيلي البدوي (المتوفى: ١٣٨٤هـ).

لقدره، واستعلاءً بمكانته بين الأسباب المتداخلة معه في الوصول إلى الغاية المتّجه إليها"([1]).

التعبير بالفاء في قوله: {فَأَتْبَعَ سَبَبًا} المفيدة للتعقيب يشير إلى همة ذي القرنين العالية وسرعة إنجازه وتفاعله مع الأحداث.

المسألة الثالثة: من توجيه القراءات المتواترة في قوله تعالى:

﴿**فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)**﴾ [الكهف: ٨٥] ﴿ **ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩)**﴾ [الكهف: ٨٩] ﴿**ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢)**﴾[الكهف: ٩٢].

القراءات: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب ﴿**فَاتَّبَعَ**﴾ بوصل الهمزة وتشديد التاء.

وقرأ الباقون ﴿**فَأَتْبَعَ**﴾ بقطع الهمزة وإسكان التاء([2]).

التوجيه المختار: "﴿**فاتَّبَعَ**﴾ أي بغاية جهده – هذا على قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو بالتشديد، والمعنى على قراءة الباقين بقطع الهمزة وإسكان الفوقانية: ألحق بعض الأسباب ببعض، وذلك تفسير لقراءة التشديد"([3]).

و"**سَبَباً**" **أي:** علمًا وفهمًا، يتوصل به إلى معرفة الأشياء والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو غير ذلك"([4]).

وبتحكيم هاتين القراءتين، نخلص إلى أن ذا القرنين، كان في غاية الاجتهاد؛ فهو لا يترك سبباً من الأسباب لديه، إلا استفرغ وسعه في الإفادة منه، إفادة تامة، ولا يكتفي بذلك، بل يسعى إلى الفائدة المضاعفة، من خلال تنمية ذلك السبب، بأسباب أخري، متولدة منه، أو متفرعة عنه، فهو يستقصي الاستفادة من

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٨/ ٧٠٤).

(٢) (النشر في القراءات العشر) (٢/ ٣١٤).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢/ ١٣٠).

(٤) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٤٧٣).

كل سبب، وهو لا يكل ولا يمل، بل يُتبع السبب بآخر، وهكذا هو في نصب دائم في الحق ورغبٍ مستمر في فضل ربه، وقابل العطاء الإلهي بشكر إنساني فكوفئ بالمزيد.

المقطع الثالث: رحلته نحو مغرب الشمس.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءَ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)﴾ [الكهف: ٨٦ – ٨٨].

المسألة الأولى: الأماكن في القرآن بين التسمية والوصف.

القرآن الكريم في غالب قصصه، يبتعد عن تحديد الأماكن بأسمائها؛ لأن العبرة في الغالب لا تتوقف على معرفة ذات المكان، ولكنا نجد القرآن العظيم يهتم بوصف المكان، أو ما يمكن تسميته الخلفية الجغرافية للأحداث؛ لأن وصف مكان القصة يجعل المتلقي ينتقل بمخيلته إلى هناك، ويكون تفاعله معها أعمق، وتنقله مع أحداثها ألذ وأشوق، بحيث يتحول المكان إلى بطل من أبطال القصة يزاحم في أحداثها ومشاهدها فها هي آيات القرآن تصف لنا المكان، قبل أن تسرد الأحداث التي جرت فيه، فذو القرنين يتجه جهة المغرب بجيشه القوي، ولم يوقفه إلا حاجز مائي كبير، إنها عين ماء **﴿حَمِئَةٍ﴾** أي مختلطة بالطين، وهي أيضاً ذات حرارة مرتفعة، يُضاف هذا الوصف من القراءة المتواترة الأخرى **﴿حامية﴾**(١)، وهي عين واسعة جداً، ودليل اتساعها أنها

(١) "قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحفص ويعقوب ﴿ **في عَيْنٍ حَمِئَةٍ**﴾ مهموزة بغير ألف، وقرأ الباقون (**حَامِيَةٍ**) بألف غير مهموزة – وقرأها ابن مسعود **﴿حامية﴾** قال=

تستوعب نظر الرائي، فلا يري آخرها مهما سرَّح بصره، وعند غروب الشمس يرى كأن الشمس تغرب في مائها، فالمكان إذاً على ساحل مسطح مائي كبير. ومشهد غروب الشمس في الماء مشهد من مشاهد الجمال الفائق الدال على بديع خلق الله (ﷻ) وهذا يشير إلى أن يأخذ المسلم حظه من الاستمتاع بتلك المناظر الجمالية التي ترهف الوجدان وتطيب الخاطر. وأن التفكر في آيات الله في الكون مقصد من مقاصد السفر. و"الخبر هو عن ذي القرنين، وأنه هو الذي وجد الشمس تغرب كما تبدو لكل إنسان أنها تغرب في البحر أو وراء جبل حسب موقع الرائي"(١). فلا إشكال أصلًا، ويعجبني في تحديد طبيعة ماء تلك العين ما قاله الإمام محمد أبو زهرة: "... وما المراد من هذه العين؟ المراد منها الماء. ولكن أهو ماء المحيط، أم البحر، أم هو ماء نهر؟ الظاهر لدي أنه ماء نهر، لَا ماء محيط، لأنه ذكر أنه عين، وماء العيون في أكثر أحواله ليس ماء ملحًا، وإن كان فهو معدني إلى العذوبة أميل، ولأنه ذكر أنها عين حمئة، أي التي اختلط ماؤها بطين، وتلك تكون في الأنهار لَا في البحار"(٢).

قلت: ومع الماء العذب، يكون النماء، وتكون الحياة والزراعة؛ و يوحي التعبير القرآني أن حياة أولئك القوم كانت مرتبطة بتلك العين الحمئة؛ نستشف ذلك من كلمة ﴿**عندها**﴾ من قوله تعالى ﴿**وَوَجَدَ عِنْدَهَا قوماً**﴾، فهم مقيمون عندها، وحياتهم مرتبطة بها، ويبدو أن سكان تلك البيئة، لم يكونوا يعانون

=الأزهري: مَنْ قَرَأَ ﴿**حَمِئَة**﴾ أراد: في عَيْن ذاتِ حَمْأة، قد حَمِئت فهي حَمِئَة، وَمَنْ قَرَأَ **(حامية)** أراد: حارَّة، وقد تكون "حارَّة ذات حمأة ، فيكون فيها المعنيان" أ هـ. معاني القراءات للأزهري (٢/ ١٢١).

(١) الإسلام في عصر العلم، ص ٢٥٢ للدكتور: محمد أحمد الغمراوي، ط دار الكتب الحديثة ١٩٧٨م.

(٢) زهرة التفاسير (٩/ ٤٥٧٩).

مشكلة اقتصادية، بل كانت مشكلتهم عقدية أخلاقية، فالآيات تشير إلى ظلم يراد به الشرك قال ابن عاشور"... بقرينة قسيمه في قوله: {**وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**}"(١)، ومع الشرك تنهار الأخلاق والقيم، وذو القرنين لم يأت هؤلاء القوم، بدعوة مجردة من القوة المادية؛ بل كانت مظاهر قوته المادية، مانعاً من معارضة أهل النفاق والهوى، وأهل البغي والعناد، لما يحمله من مبادئ عدل وإصلاح، وعبارة ذي القرنين أفادت العدل في العقوبة، والإحسان في المكافأة.

المسألة الثانية: من اللطائف البلاغية.

تنكير قومًا يُؤذن بأنهم أمة غير معروفة، ولا مألوفة حالة عقائدهم وسيرتهم. فجملة {**قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ**} استئناف بياني لما أشعر به تنكير قومًا من إثارة سؤال عن حالهم، وعما لاقاه بهم ذو القرنين، وقد دل قوله: {**إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا**} على أنهم مستحقون للعذاب، فدل على أن أحوالهم كانت في فساد من كفر وفساد عمل(٢)، و (سوف) دالة على توكيد وقوع الفعل في المستقبل(٣). و(اللام) في (فَلَهُ) للاختصاص، وكان من كرم اللَّه أن جعله حقا للمحسن وليس عطاء يعطي أُعطية، وكان ذلك منًّا وفضلا.(٤)، وهناك مقابلة بين قوله: ﴿**أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ**﴾ وبين قوله: ﴿**وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى**﴾.

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٧).
(٢) المصدر السابق (١٦/ ٢٦).
(٣) زهرة التفاسير (٩/ ٤٥٨٠).
(٤) السابق.

المقطع الرابع: رحلته نحو مطلع الشمس.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١)﴾ [الكهف: ٨٩ – ٩١].

بلاغة وصف المكان وسكانه: هذه رحلته نحو المشرق، وهي رحلة طويلة ممتلئة بالأحداث، اختار القرآن منها ختامها، و"(ثُمَّ) هنا في موضعها؛ لأنها تدل على التراخي، إذ إنه حكم أمدًا ليس بقصير في المغرب، وإنه أدنى منه مقاماً؛ فإن تثبيت دعائم العدل في النفوس، يحتاج إلى زمن ليستقر ويبقى، ويصبح عادة طيبة في الأقوام"(١). وهؤلاء القوم كانت تواجههم مشكلة بيئية – على عكس أولئك المقيمين عند تلك العين الحمئة –، فأهل المشرق هؤلاء، بيئتهم خالية من التضاريس فهي أرض منبسطة تحت أشعة الشمس اللاهبة؛ بلا ظل من جبل أو شجر، كما أن خبرتهم لم تسعفهم بمعالجة ذلك الوضع القاسي، وبهذا تظهر بلاغة الإيجاز في التعبير القرآني ﴿**لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا** ﴾ فهذا وصف يشمل، خلو تلك الأرض من حواجب أشعة الشمس الطبيعي منها، أو الصناعي، ولم يذكر القرآن كيف ساعدهم ذو القرنين على التغلب على تلك المشكلة، ولكن نستشف ذلك من قوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١)**﴾، ذلك أنه من المعلوم بالضرورة، أن الله تعالى أحاط بكل شيء علماً وخُبراً، وليس بما لدى ذي القرنين وحده، فإيثار القرآن التعبير بهذه الصيغة، أرى فيه إشارة إلى أمرين:

الأول: تفخيم شأن ذي القرنين، وما لديه من سعة من العلم بأسباب الحياة، وتدبير الممالك، وشئون المجتمعات حتى يختصه القرآن الكريم بهذا المعنى.

---

(١) زهرة التفاسير (٩/ ٤٥٨٣).

الثاني: أن تلك المشكلة البيئية، التي واجهت هؤلاء القوم، وانكشافهم أمام أشعة الشمس، لم يعجز ذو القرنين عن معالجتها، وهو الذي يملك من سعة التدبير ما صورته تلك الصيغة القرآنية المعجزة: ﴿**كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١)**﴾.

ويبقى سؤال: لماذا لم يذكر القرآن الكريم كيف ساعدهم ذو القرنين على تجاوز تلك الظروف القاسية؟ والجواب – والله أعلم –: أن القرآن الكريم حدد من البداية، طريقة معالجة هذه القصة، وأنه سيذكر بعض أحداثها، لا كل أحداثها؛ فقد ابتدأها بقوله (ﷻ): ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣)**﴾ [الكهف: ٨٣]، ومن تبعيضيه أي بعضاً من خبره وشأنه، ولا شك أن ذلك من إعجاز القرآن، فإن هذه القصة، وهي واحدة من عشرات القصص، التي ذكرها القرآن الكريم، تحتاج إلى مجلدات، حتى تستوعب كل تفاصيلها، ولو فعل القرآن ذلك لخرج عن قصده؛ وهو كونه كتاب هداية، عامة شاملة، ميسر، مبين. ويتيح هذا المنهج القرآني للجهد البشري محاولة استكشاف ما خفي من زوايا التاريخ.

المقطع الخامس: بلوغه بين السدين.

﴿**ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣)**﴾.

المسألة الأولى: وصف المكان.

يختار القرآن من وصف المكان هنا، ما له علاقة بالحدث الأبرز، في هذا المشهد، وهو بناء السد، الذي طلبه أولئك القوم، أو (الردم) كما سماه ذو القرنين، فالمكان الذي بلغه ذو القرنين هذه المرة ﴿**بَيْنَ السَّدَّيْنِ**﴾، وقد أجمعت كلمة المفسرين أن المراد بهما جبلين قال العلامة ابن عاشور: "والمراد بالسدين

هنا الجبلان، وبالسد المفرد الجدار الفاصل، والقرينة هي التي عينت المراد من هذا اللفظ المشترك"(١)، ولا شك أن الوصف بالسدين يخدم هدف القصة، ويوفر قدراً كبيراً من الألفاظ، فإن بناء السدود يحتاج إلى موقع خاص في أرض ذات طبيعة خاصة؛ فهو يحتاج إلى مضيق بين مرتفعين؛ فالأرض المنبسطة لا يصلح فيها بناء السدود، لأن امتداد السد أفقياً يضعفه ويجعل انهياره قريباً، والالتفاف حوله ممكناً، فيصبح بلا جدوى، أما بناؤه بين مرتفعين من الجبال، فإنه يتماسك بهما، فهما بمثابة دعائم ومثبتات للسد الذي التحم بهما، فباء السد الصناعي ما هو إلا استكمال لسدود طبيعية على جانبيه، وغلق لثغرة بينها، وقد جاء وصف القرآن للمكان الذي بلغه ذو القرنين هذه المرة ﴿**حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ**﴾ ليشعر بصلاحية تلك الأرض وذلك الموقع لبناء السد الذي طلبه أولئك القوم، وقد أفاد النص القرآني كل هذه الإيحاءات دون جمل اعتراضيه، أو إسهاب في جزئيات، وهذا الثراء في المعنى، هو دائماً المعهود والمشهود في النص القرآني العزيز، وقد أصبح المكان بهذا الوصف البليغ بطلًا من أبطال القصة.

المسألة الثانية: من توجيه القراءات في وصف حال هؤلاء القوم.

" قَرَأَ ابْن كثير وَنَافِع وَأَبُو عَمْرو وَعَاصِم وَابْن عَامر ﴿ **يَفْقَهُونَ قولًا**﴾ بِفَتْح الْيَاء، وَقَرَأَ حَمْزَة والكسائي ﴿**يُفْقِهُونَ**﴾ بِضَم الْيَاء"(٢) "قال أبو منصور: مَنْ قَرَأَ ﴿**لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا**﴾ فمعناه: لا يكادون يَفْقَهُونَ عنك. وَمَنْ قَرَأَ (**يُفْقِهُونَ**) فمعناه: لا يكادون يُفْهِمون غيرهم إذا نطقوا، والفقيه معناه – العالم"(٣).

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٣١).
(٢) السبعة في القراءات لابن مجاهد (ص: ٣٩٩).
(٣) معاني القراءات للأزهري (٢/ ١٢٣).

وبمجموع هاتين القراءتين يتبين أن ذا القرنين وجد صعوبة بالغة في التواصل اللغوي مع هؤلاء القوم، والظاهر أن لغتهم كانت من تلك اللغات المحلية المنقطعة عن غيرها من الشعوب بحيث لم يجد ذو القرنين مترجماً من أتباعه يفهم لغتهم، وهم كذلك من باب أولى لم يكن بينهم من يفهم أياً من تلك اللغات التي تنتشر في حضارة كبيرة مثل تلك التي أقامها ذو القرنين. ولكن الحريص ذو الهمة لا يُعدم وسيلة فقد استطاع في النهاية أن يفهم شكواهم وفي ذلك ثناء عظيم على صبر ذلك الملك الذي لم يضجر من هؤلاء القوم بسبب اختلاف اللغة وصعوبة التواصل وحرصه على سماع صرخة المظلوم. وإن صعب فهمها قال الإمام الزمخشري: "لا يكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها كما يفهم البكم"(١). ويقول الإمام القشيري: "ما كانوا يهتدون إلا إلى لسان أنفسهم، وما كانوا يفقهون فقه غيرهم فلجئوا إلى عبراتهم في شرح قصتهم، ورفعوا إليه- في باب يأجوج ومأجوج- مظلمتهم، وضمنوا له خراجًا يدفعونه إليه، فأجابهم إلى سؤلهم، وحقّق لهم بغيتهم، ولم يأخذ منهم ما ضمنوا له من الجباية، لمّا رأى أنّ من الواجب عليه حق الحماية على حسب المكنة"(٢).

المقطع السادس: شكوى ورجاء يقابلها عفة ووفاء.

{قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥)} [الكهف: ٩٤، ٩٥]

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٧٤٦).

(٢) لطائف الإشارات = تفسير القشيري (٢/ ٤١٣).

المسألة الأولى: يأجوج ومأجوج وإفسادهم في الأرض.

إن حب الأوطان فطرة فطر الله الناس عليها فهؤلاء القوم متشبثون بديارهم لا يريدون الرحيل عنها مع ظلم يقع عليهم من جيران سوء فطلبوا من ذي القرنين حلاً يبقيهم في ديارهم آمنين وعرضوا عليه جزءًا من دخلهم مقابل بناء سد يحميهم من إفساد يأجوج ومأجوج وواضح من استجابته السريعة لرجائهم تحققه من صحة شكواهم، وأن حالهم لا تسمح بدفاعهم عن أنفسهم، وأن إفساد يأجوج ومأجوج وخطورتهم ليست على هؤلاء القوم وحدهم بل تتعداهم إلى غيرهم من الشعوب ولذلك أعطى ذو القرنين للأمر الأهمية المستحقة. و"وافتتاحهم الكلام بالنداء أنهم نادوه نداء المستغيثين المضطرين، ونداؤهم إياه بلقب ذي القرنين يدل على أنه مشهور بمعنى ذلك اللقب بين الأمم المتاخمة لبلاده."([1]).

من هم يأجوج ومأجوج؟ يأجوج ومأجوج ورد ذكرهم في القرآن في سورتي الكهف والأنبياء الأولى في قصة ذي القرنين، والثانية في مشهد من مشاهد علامات الساعة الكبرى قال تعالى: {**حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧)**} [الأنبياء: ٩٦، ٩٧]. والذي يخلص من أخبارهم الواردة في القرآن والسنة كثرتهم وشدة إفسادهم وأن خروجهم من علامات الساعة الكبرى وقد تضمنت آيات سورة الكهف إشارة إلى أن بقاءهم محصورين خلف السد سيكون إلى أمد طويل، ولكنه لن يستمر {**قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا**} (سورة الكهف: ٩٨)، وهذا الوقت هو ما أخبر عنه النبي (ﷺ)

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٢).

في أحاديثه، من أن خروجهم يكون في آخر الزمان قرب قيام الساعة فعن زينب بنت جحش، (ﷺ) أن النبي (ﷺ)، دخل عليها فزعا يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»(١)، و آية سورة الأنبياء تبين كثرتهم وسرعة اندفاعهم عند خروجهم وذلك في قوله تعالى: **{حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ}** (سورة الأنبياء، الآية ٩٦). وقوله تعالى: {...**فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ**} من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أي سد يأجوج ومأجوج.

المسألة الثانية: علاقة الحاكم بمال الرعية:

استنبط الإمام ابن العربي من قصة بناء السد أنه فرضٌ على الحاكم " أن يقوم بحماية الخلق في حفظ بيضتهم، وسد فرجتهم، وإصلاح ثغرهم من أموالهم التي تفيء عليهم، وحقوقهم التي يجمعها خزنتهم تحت يده ونظره، حتى لو أكلتها الحقوق، وأنفدتها المؤن، واستوفتها العوارض، لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم، وعليه حسن النظر لهم، وذلك بثلاثة شروط: **الأول:** ألا يستأثر بشيء عليهم. **الثاني:** أن يبدأ بأهل الحاجة منهم فيعينهم. **الثالث:** أن يسوي في العطاء بينهم على مقدار منازلهم، فإذا فنيت بعد هذا ذخائر الخزانة وبقيت صفرا فأطلعت الحوادث أمرا بذلوا أنفسهم قبل أموالهم، فإن لم يغن ذلك فأموالهم تؤخذ منهم على تقدير، وتصرف بأحسن تدبير. فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال قال: لست أحتاج إليه، وإنما أحتاج إليكم فأعينوني بقوة، أي اخدموا

(١) صحيح البخاري (٩/ ٤٨)، صحيح البخاري (٤/ ١٣١) كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قصة يأجوج، ومأجوج، حديث رقم ٣٣٤٦.

بأنفسكم معي، فإن الأموال عندي والرجال عندكم؛ ورأى أن الأموال لا تغني دونهم، وأنهم إن أخذوها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه، فعاد عليهم بالأخذ، فكان التطوع بخدمة الأبدان أولى...وضبط الأمر فيه أنه لا يحل أخذ مال أحد إلا لضرورة تعرض فيؤخذ ذلك المال جهرًا لا سرًا، وينفق بالعدل لا بالاستئثار، وبرأي الجماعة لا بالاستبداد بالرأي. والله الموفق للصواب."(١).

المسألة الثالثة: دروس في تربية الشعوب

١- إن التربية بالقدوة تظهر أتم ظهور في تعفف ذي القرنين عن مال ذلك الشعب المظلوم، وتعليل تعففه عن مالهم بما مكنه الله فيه من خير **{قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ}** يوجه قلوبهم إلى الرب الجليل (ﷻ)؛ لينسبوا الفضل إليه، وهكذا يحمي هؤلاء من الافتتان بشخصه كملك ذو قوة وسلطان، وكم ضلت شعوب بافتتانها بزعماء وقادة نسبوا إليهم ما لا ينسب إلا للعلي الأعلى (ﷻ).

٢- وطلبه منهم أن يعينوه بقوة في بناء السد، فضلًا عن أنه من متطلبات الإنجاز إلا أن فيه مغزى عميقًا يُعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم واستشعار أهميتهم في الحياة، وقدرتهم على حماية أنفسهم إن لم يكن بالسلاح فبالكد والعرق في بناء ما يغنيهم عن حمل السلاح. وفي ذلك ما فيه من تدريبهم على العمل الجماعي التطوعي الذي يُحي فيهم روح الترابط ويُؤسس لمستقبل من التعاون يتغير به حالهم وفقا لسنة الله في الاجتماع البشري.

٣- ويظهر كذلك حسن سياسة ذي القرنين في دفع الضرر بأخف ما يدفع به، وأنفعه؛ فلم يفكر في حرب قد تطول لسنوات، وتتجدد ولو بعد حين؛ فرأي أن جدوى السد الذي عرضه هؤلاء القوم أجدى، وأنفع، ولم يفرض عليهم حلًا لا يرغبون به. ولا بد أن موافقته على طلبهم وافقت رؤيته في إمكان تحققه من توافر الجغرافيا المناسبة، ومواد البناء والأيدي العاملة.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي، ط العلمية (٣/ ٢٤٣).

٤- وقد طلبوا منه أن يبني "سدًا" فوعدهم بأن يبني "ردمًا" وهو أشد من السد وأقوى فـ "الرَدْم -بالفتح: السَدّ العظيم"(١)، وفي ذلك إلهاب لحماستهم وشحذ لهمتهم كأنه يقول لهم أعينوني أعطيكم فوق ما طلبتم.

المقطع السابع: خطة البناء ومراحله وشكر المنعم (ﷻ).

{آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)} [الكهف: ٩٦، ٩٨].

المسألة الأولى: مواد البناء.

{آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ} القطع الضخمة منه(٢)، وقد ذكر الحديد دون المواد الأخرى كونه يمثل الجزء الأهم بينها، ولا يزال حتى العصر الحديث يمثل العمود الفقري للصناعة، وفي النص عليه أيضًا تذكير بما ورد في سورة الحديد **{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)}** [الحديد: ٢٥]، وما قام به ذو القرنين من استخدام الحديد في بناء السد هو من باب نفع الناس، ونصر الله ورسله؛ فإن منع الفساد في الأرض ورفع الظلم من أهم مقاصد الرسالات الإلهية. ولم ترد كلمة الحديد في القرآن الكريم مقرونة بأشخاص معينين في مجال الصناعة إلا مع داود (عليه السلام) الذي آتاه الملك والنبوة {... وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠)} [سبأ: ١٠] ومع ذي القرنين {آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ} ولعلها قرينة أخرى ترجح القول بنبوته.

---

(١) المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ٧٩١).

(٢) انظر المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ٧٩٢) مادة (زبر).

{آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا}: "القِطْر – بالكسر: النحاس الذائب (يصيّرونه كذلك) سمي بهيئة خروجه"(١) ولم يرد ذكر (الْقِطْرِ) كذلك مقروناً بأشخاص معينين في مجال الصناعة إلا مع داود (عليه السلام) قال تعالى: **{وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ}** [سبأ: ١٢].

المسألة الثانية: مراحل البناء.

{حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ} "يقال لجانبي الجبل إذا تحاذيا صُدُفان وصَدَفان لتصادفهما أي تلاقيهما وتحاذي هذا الجانب والجانب الذي يلاقيه، وما بينهما فجٌّ أو شِعْبُ أو وادٍ"(٢). ولعل إيثار التعبير هنا عن الجبلين بالصدفين وليس السدين كما سبق إشارة إلى إحكام استواء السد ووصله بين الصدفين بلا انحراف، وهو ما يعطيه قوة فوق قوته **{سَاوَى}** "أي: سوّى بينهما حين رفع السد بينهما"(٣). **{قَالَ انْفُخُوا}** "المِنْفاخ: كِيرُ الحداد الذي يُنْفَخُ به في النار"(٤). قال الإمام أبي السعود: {**انفخوا**} أي بالكيران في الحديد المبني ففعلوا **{حتى إِذَا جَعَلَهُ}** أي المنفوخ فيه **{نَارًا}** أي كالنار في الحرارة والهيئة"(٥). **{قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا}** أي آتوني قِطراً أي نُحاساً مذاباً أفرِغْ عليه قطراً فحُذف الأولُ لدلالة الثاني"(٦)، وإسنادُ الأفعال (ساوى) (أجعل) (أفرغ) "إلى ذي القرنين مع أنه فعلُ الفَعَلة للتنبيه علي أنه العُمدة في ذلك"(٧).

---

(١) المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ١٨٠٤). مادة قطر.

(٢) السابق (٣/ ١٢٠٧) مادة صدف.

(٣) السابق (٢/ ٩٣٤) مادة سوى.

(٤) السابق مادة نفخ (٤/ ٢٢٣٣).

(٥) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٥/ ٢٤٦).

(٦) المصدر السابق.

(٧) انظر السابق.

المسألة الثالثة: نجاح المشروع وأداء السد لوظيفته.

فشل محاولات التسلق والخرق: {**فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا**}. "الفاء فصيحةٌ أي فعلوا ما أُمروا به من إيتاء القِطْر أو الإتيانِ فأفرغَه عليه فاختلط والتصق بعضُه ببعض فصار جبلاً صَلْداً فجاء يأجوجُ ومأجوجُ فقصدوا أن يعلُوه وينقُبوه فما استطاعوا {**أَن يَظْهَرُوهُ**} أي يعلوه ويرقَوا فيه لارتفاعه وملاسته {**وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْبًا**} لصلابته وثخانتِه"(١).

المسألة الرابعة: شكر المنعم (ﷻ):

{**قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)**} [الكهف: ٩٨] "جملة {**قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي**} مستأنفة استئنافًا بيانيًا، لأنه لما آذن الكلام بانتهاء حكاية وصف الردم كان ذلك مثيرًا سؤال من يسأل: ماذا صدر من ذي القرنين حين أتم هذا العمل العظيم؟ فيجاب بجملة: قال هذا رحمة من ربي. والإشارة بهذا إلى الردم، وهو رحمة للناس لما فيه من رد فساد أمة يأجوج ومأجوج عن أمة أخرى صالحة، و (من) ابتدائية، وجعلت من الله لأن الله ألهمه لذلك ويسر له ما هو صعب"(٢).

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٥/ ٢٤٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٩).

الخاتمة

وصل هذا البحث بفضل الله تعالى إلى مجموعة من النتائج نذكر منها:

١- أن الشخص الوحيد الذي ورد ذكر قصته بصيغة يسألونك هو ذو القرنين.

٢- أن كلمة (قرن وجمعها قرون) وردت في القرآن بمعنى القوم المقترنون في زمن واحد ولم يرد لها استعمال في غير هذا المعنى. ولم ترد مثناة إلا في كلمة {**ذي القرنين**} وقد ترجح من خلال استعمال القرآن للمفرد والجمع أن معنى لقب ذي القرنين أي الذي طال حكمه فشمل قرنين من الزمان على الخلاف الوارد في مدة القرن والراجح فيه أنه مائة عام.

٣- أن استعمال القرآن الكريم لكلمة (مكنا) متصلة بنون العظمة في الحديث عن شخص مقرد لم ترد إلا ليوسف (عليه السلام)، وذي القرنين.

٤- أن استعمال القرآن الكريم لكلمة (قلنا) متصلة بنون العظمة في خطاب المفرد وردت ست مرات في خطاب الأنبياء وحدهم و السابعة كانت في خطاب ذي القرنين.

٥- أن (الحديد والقِطر) لم يردا في القرآن الكريم في سياق الحديث عن أشخاص بعينهم وفي مجال الصناعة إلا في قصتي داود وذي القرنين.

٦- اختلف العلماء حول ذي القرنين هل كان ملكًا فقط أم جمع بين النبوة والملك، وقد رجحت من خلال معهود استعمال القرآن الكريم لكلمتي (مكنا) و (قلنا) قول من قال بنبوته والله تعالى أعلم.

٧- حفلت آيات القصة باللطائف البلاغية، والدروس التربوية وقد نص عليها في مواضعها.

والحمد لله أولًا وآخرًا.

المصادر والمراجع (١)

١- **أحكام القرآن:** المؤلف: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ). راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢- **الإسلام في عصر العلم:** للدكتور محمد أحمد الغمراوي، ط دار الكتب الحديثة ١٩٧٨م.

٣- **أصول البحث العلمي ومناهجه:** د. أحمد بدر- وكالة المطبوعات الكويتية، ط ٧- ١٩٨٤م، توزيع دار القلم بيروت.

٤- **البحث العلمي مناهجه وتقنياته:** د. محمَّد زيان عمر، ص ٣٢، ط/ جدة بالسعودية، ١٣٩٤هـ.

٥- **البداية والنهاية:** المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

٦- **تأملات في سورة الكهف:** للشيخ أبي الحسن الندوي، ط دار القلم بالكويت، ١٩٨٦م.

٧- **التسهيل لعلوم التنزيل:** المؤلف: أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: ٧٤١هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت. الطبعة: الأولى - ١٤١٦هـ.

(١) مرتبة حسب حروف المعجم.

٨- **تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم:** المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٩- **التفسير القرآني للقرآن:** المؤلف: عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ)، الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة.

١٠- **التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد:** ط دار السلام ط الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

١١- **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه = صحيح البخاري:** المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي. المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٢- **زهرة التفاسير:** المؤلف: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ)، دار النشر: دار الفكر العربي.

١٣- **السبعة في القراءات:** المؤلف: أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي (المتوفى: ٣٢٤هـ)، المحقق: شوقي ضيف، الناشر: دار المعارف – مصر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٠هـ.

١٤- **سير أعلام النبلاء:** المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٥- **سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي):** المؤلف: محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني (المتوفى: ١٥١هـ)، تحقيق: سهيل زكار،

الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: الأولى ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م، البلاغة العربية للشيخ حسن حبنكة الميداني.

١٦- **قواعد الترجيح عند المفسرين:** لحسين الحربي ١٥٣/١ راجعه وقدم له الشيخ مناع القطان، ط دار القاسم، الثانية ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.

١٧- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:** المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧هـ.

١٨- **لطائف الإشارات = تفسير القشيري:** المؤلف: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ)، المحقق: إبراهيم البسيوني. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر الطبعة: الثالثة.

١٩- **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله (ﷺ) المؤلف:** مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٢٠- **معاني القراءات للأزهري:** المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، الناشر: مركز البحوث في كلية الآداب – جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ – ١٩٩١م.

٢١- **المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (مؤصَّل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها):** المؤلف: د. محمد حسن حسن جبل الناشر: مكتبة الآداب – القاهرة الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م.

٢٢- **المفردات في غريب القرآن:** المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٢هـ، تاج العروس من جواهر القاموس، المؤلف: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ) المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية التحرير والتنوير

٢٣- **من بلاغة القرآن:** المؤلف: أحمد عبد الله البيلي البدوي (المتوفى: ١٣٨٤هـ) الناشر: نهضة مصر – القاهرة، عام النشر: ٢٠٠٥م.

٢٤- **النشر في القراءات العشر:** المؤلف: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: ٨٣٣ هـ)، المحقق: علي محمد الضباع (المتوفى ١٣٨٠ هـ)، الناشر: المطبعة التجارية الكبرى [تصوير دار الكتاب العلمية].

٢٥- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:** المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ) الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

فهرس الموضـــــوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث عربي	٣٤٠١
ملخص البحث إنجليزي	٣٤٠٢
المقدمة	٣٤٠٣
المبحث الأول: مدخل الدراسة	٣٤٠٨
تعريف القصة لغة	٣٤٠٨
من فضائل سورة الكهف	٣٤٠٩
الوحدة الموضوعية في سورة الكهف وموقع قصة ذي القرنين فيها	٣٤١٠
مناسبة قصة ذي القرنين للقصة السابقة لها	٣٤١٤
ما ورد من سبب نزول آيات قصة ذي القرنين	٣٤١٤
المبحث الثاني: مقاطع القصة	٣٤١٦
• **المقطع الأول:** سؤال تحدٍ، وجواب استعلاء	٣٤١٦
• **المقطع الثاني:** موجز القصة: عطاء إلهي، وشكر إنساني	٣٤٢٥
• **المقطع الثالث:** رحلته نحو مغرب الشمس	٣٤٣١
• **المقطع الرابع:** رحلته نحو مطلع الشمس	٣٤٣٤
• **المقطع الخامس:** بلوغه بين السدين	٣٤٣٥

• **المقطع السادس:** شكوى ورجاء يقابلها عفة ووفاء	٣٤٣٧
• **المقطع السابع:** خطة البناء ومراحله وشكر المنعم (ﷻ)	٣٤٤١
الخاتمة	٣٤٤٤
المصادر والمراجع	٣٤٤٥
فهرس الموضوعات	٣٤٤٩